المقدمة

فى قديم الزمان وسالف العصر والأوان، عاش فى شرق المعمورة ملك عُرف عنه عشق العلم والمعرفة وفى يوم من ذات الأيام خطر على باله ماذا لو عرف كل شىء عن حياة الناس الذين عمروا الأرض منذ بدء الخليقة، فاستدعى كبير وزرائه وكلفه بأن يجمع له تاريخ أمم العالم، كيف عاش الناس منذ الأزل؟ وكيف يعيشون الآن؟ فيم تحابوا فى الماضى؟ وفيم يتصارعون الآن؟ ما هى عاداتهم وتقاليدهم؟ ما هى الثقافات التى ازدهرت وتلك التى خبت على مر العصور فى البلاد المختلفة ؟

وأمهل الملك كبير وزرائه خمسة أعوام كاملة لإجابة مطلبه وأذعن كبير الوزراء لأمر ملكه، وكلف وزراءه بتدبر الأمر وعلى الفور بدأ الوزراء يجوبون البلاد طولا وعرضا يجمعون شتات كل ما تتناوله أيديهم من المعارف ليضمنوها مادة الكتاب وتوالت الأيام ومضت السنون حتى انقضت المهلة التى حددها الملك، واجتمع الوزراء بالقصر الكبير فى حضرة الملك، وقال كبيرهم فى أدب جم: مولاى لقد حققنا رغبتكم السامية، وكل ما عليك هو أن تنظر من تلك النافذة وسوف ترى رغبتك ماثلة أمام عينيك.

ونظر الملك من النافذة، وفرك عينيه فى تعجب من هول ما رأى، حين أبصر قافلة من الجمال تمتد على مرمى البصر أمام ناظريه حتى إنه لم يدرك لها نهاية، وكان كل جمل محملا بكيسين كبيرين مكتظين بالكتب، وتساءل الملك فى دهشة بالغة ما هذا؟ فأجابه كبير الوزراء هذا هو تاريخ الأمم يا مولاى، كدحت مع وزرائى سنوات طويلة وصلنا فيها النهار بالليل حتى تم تجميعه وتبويبه، فصاح الملك فى الحضور: هل تهزءون منى؟ تعلمون أنه ليس فى طاقتى ولا طاقة أى بشر أن يطالع عُشر ما أراه ماثلا أمام ناظرى، حتى وإن استنفدت فى ذلك ما يتبقى لى من عمر فى الدنيا، عليكم بتلخيص ما جمعتموه فى غضون عام واحد.

وبعد مرور العام، استقرت قافلة أخرى تضم عشرة جمال فقط أمام قصر الملك، كل منها محمل بكيسين من الكتب الضخمة. وثارت أعصاب الملك للمرة الثانية، وصاح فى كبير وزرائه، دعهم يكتبون لى الأحداث الهامة جدا فقط التى شهدتها جميع البلدان على مر الزمن. وسأل الملك كبير وزرائه كم من الوقت تحتاج لإنجاز ما أمرتك به، فأجاب كبير الوزراء أمهلنى للغد وسوف أحقق لك رغبتك السامية، فنظر إليه الملك فى تعجب وقال : ولكن احذر أن تخدعنى لأنك سوف تدفع حياتك ثمنا لذلك.

ومع بزوغ فجر يوم جديد، دخل كبير الوزراء إلى القصر الملكى حاملا فى يده حقيبة من الخشب صغيرة الحجم. ولما مثل أمام الملك حياه وقال : مولاى ستجد فى هذه الحقيبة ضالتك المنشودة، أهم الأحداث التى وقعت فى التاريخ لكل الناس فى كل العصور وفى كل البلاد. وأخذ الملك الحقيبة فى شغف وفتحها ليجد بها قطعة صغيرة من الحرير الأبيض مثبتة فوق وسادة مخملية حمراء اللون كتب عليها بخط جميل لقد ولدوا وعاشوا وماتوا.

هذا ما ترويه لنا الأسطورة القديمة، فإذا كان هذا هو شأن العلم والثقافة فى قديم الزمان، فما بالك فيما نعيشه اليوم من التحام للعلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية والفلسفة تمخضت عنه كم هائل من التقنية التى ننعم بها على مدار اليوم.

وفى الواقع أن كل جهد يبذله العلماء، هو جهد من أجل الإنسان، وتأكيدا لسيادته على كافة ما خلق الله سبحانه وتعالى من كائنات وموجودات تعمر هذا الكون. وعلى مر الزمان تمكن الإنسان من تحقيق ذاته، وأدرك كثيرا من العلل الكامنة وراء ظواهر الوجود، وكشف من القوانين ما سبر به غوامض ما يحيط به.

وقد حقق العلماء نجاحا ساحقا نحيا تحت ظلاله جميعا، غيَّر وجه الحياة على سطح كوكبنا الأزرق، فقد يسر لنا العلم العديد من المنجزات التقنية، التى ننعم بها فى حياتنا اليومية، وكثير منها لم يرد حتى على بال معظمنا.

وليس فى مقدور أحد أن يستشف بدقة ما سوف يتمخض عنه العلم للمجتمعات البشـرية فى كافة بقاع الأرض. ونحن نواجه اليوم مسـتقبلا أشد غرابة من أى مستقبل آخر إذا ما قورن بما قابله أى جيل آخر.

وهـذا الكتـاب لم يكتب للعلمـاء، لأننى لم أرد به علما، ولم أسـتهدف به عشـيرة الباحثين، إنما هى مجموعة من القصص المتنوعة استعرض بها جهود أجيال من العلماء فى سبر أغوار وأسرار الكون، ونتلمس بين سطورها وفقراتها جهـود علماء يعاصروننا ويحملون مسـئولية تطوير الحياة، ونقفز من خلالها إلى المسـتقبل نسـلط عليه الضوء فى محاولة لاستشفاف خباياه. نتصفح الكتاب ونتعمق فى محتواه، فنزداد إيمانا بخالق الكون سبحانه وتعالى، ويسرح الفكر بعيدا، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك، فمنذ الأزل لا يكاد العلماء ينفضون أيديهم من مشـكلة من المشاكل أو فى تفسـير ظاهرة من الظواهر، حتى يتفرع الموضوع إلى موضوعات والمشكلة إلى مشكلات، وتلك هى سمة البحث العلمى فى كل زمان.

وإنى أرمى من هذا الكتاب إلى تقديم العلوم فى صورة مبسطة يستطيع القارئ أن يستوعبها بعيدا عن المصطلحات العلمية، حتى نرسخ المنهج العلمى ونوظفه فى سـائر أمور الحياة، وفى نفـس الوقت نلفظ المنهج الخرافى ونسـد منافذه ونحول بينه وبين الأجيال الصاعدة، وفى نفس الوقت تنتشـر الثقافة العلمية بين كافة أطياف المجتمع لاسيما الشباب حتى نتعايش ونتفهم معطيات العصر الذى وُجِدْنا فيه بكل أبعاده.

والله ولى التوفيق

دكتور محمد صابر
أستاذ بالمركز القومى للبحوث
(msaber1941@yahoo.com)